الغرام الجديد

للدكتور زكي مبارك

أخي الأستاذ الزيات :

تفضلت فسألت مرة أو مرتين أو مرات عن سبب احتجابي عن قراء الرسالة ، وكانت حجتي في الاعتذار أن كتاب « ليلى المريضة في العراق » لم يُبق من قواي ما أصلح معه لمقابلة الناس في جِدّ أو مزاح ، وقد تلطفت فقبلت عذر أخيك ، وصفحت عن تقصيره إلى حين

فما رأيك إذا حدثتك بأني كنت في نشوة شعرية لم أصح منها إلا اليوم ؟

كنت يا صديقي مشغولاً بنظم قصيدة « الغرام الجديد » وهي تقع في مئة بيت ، وذلك الغرام هو يا صديقي نفحة من نفحات القاهرة في مطلع الربيع . هو ثورة وجدانية تعتاد من يفيق من غفوة القلب حين يتنسم أرواح الأزاهير على ضفاف النيل

أعاذني الله وإياك من غفوة العواطف ، وحمانا وإياك من الغفلة عن تنادي القلوب !

* * *

يا قلبُ هـذا نعيمٌ من الصفاء وليد
يا قلب هذا سميرٌ من الغرام جديد

لقيتُه وفؤادي غاف قريرُ السرائر
فعدتُ أحيا بروحٍ مشرَّدِ الأنس حائر

مَن يُخبري عن نصيبي من ظلّ هذا النعيم ؟
من يخبري عن مصيري في لفح هذا الجحيم ؟

كيف انتهينا ؟ أجبني يا قلب كيف انتهينا ؟
أللنعيم وصلنا ؟ أم في الجحيم ثوينا ؟

وبالوصال اصطباحُك يا قلبُ أم بالصدود ؟
وبالسهاد اغتباقك يا قلب أم بالهجود ؟

يا قلبُ طالت شكاتُك من الخدود الأسيله
فكيف تُرجَى نجاتُك من العيون الكحيله ؟

أحبُّ نور الضلال في ضافيات الذوائر
ويزدهيني الخيال في غانيات النواظر

رباهُ ماذا تريد من فتنتي بالعيون ؟
رباهُ ماذا تريد من محنتي بالشجون ؟

أأنتَ يا ربِّ راضٍ عن حيرتي في الهُيام
إن كان هذا فإني إذاً بيَ الغرام

عصرت راح غرامي من زاهرات الخدود
وكان نُقل مدامي من ناهدات النهود

يطوف بالحسن روحي في صبحهِ والماء
فيجتني من شذاهُ وشوكهِ ما يشاء

عن أكؤسي ودموعي رَوَى رحيقُ الخلود
عن مهجتي وضلوعي رَوَى سعيرُ الوجود

عن شقوتي في هيامي رَوَى ظلامُ الليالي
وعن صفاء زماني رَوَى صفاء اللآلي

أنا الشقيُّ السعيد في لوعتي وشجوني
أنا الغويُّ الرشيد في صبوتي وفتوني

من الهوى والأماني ومن زهور الجنان
ومن فنون المعاني رسمتُ وجه الزمان

لولا غنائي وشعري لمات رُوح الوجود
لولا بياني ونثري لضاع سرُّ الخلود

في الثغر والصبح معنًى لمن أحبُّ شرحُهْ
في الحبر والليل سرٌّ أظنني قد فضحتهْ

السحرُ يأخذ عني علم اختداع النفوس
والخمر تنقل عني علم انتهاب الرءوس

ما السيف في يد عانٍ مضلَّل الرأي جاني
يوماً بأفتك مني إذا امتشقت بناني

أنى لو شئتُ ركنٌ من الرشاد كبيرُ ... أو ظلال الجزيرة وفى شعاب الزمالك
والشكُّ لو شئتُ حصنٌ من اليقين حصينُ ... يهيم روحى ويشقى ويلاهُ مما هنالك !

للعقل عندى فنون وللجنون مذاهب ... يا ليتنى ما رأيتُك يا أجمل الحافظين
عندى بياض الصباح عندى سواد الغياهب ... يا ليتنى ما عرفتُك يا أقبح القادرين

إن كان فى الناس قومٌ رأوا هلال السماء ... ما أنت والزاهرات على خدود الملاح
فى سرائر قلبى والروح ألف ذكاء ... يا لوعتى فى الماء وفتنتى فى الصباح

ما عندكم ؟ حدثونى يا إخوتى فى الجنون ... أترتنى للصِّيال يا أُقْوان الرياض
فى غرامٍ وشوقٍ إلى حديث الفُتون ... وهجتنى للقتال يا أُقْوان الغياض

من الذى طاف منكم ليلاً بتلك المناسك ... أأنت ترمى وتمضى إلى رحاب الخلاص
ومن هداه هواهُ إلى ضلال الزمالك ؟ ... غرَّتك نفسُك فاعلمْ أن الجروحَ قصاص

فى ذلك الدوح غصنٌ لولا العفافُ هصرتُهُ ... فى لحظ عينيك نبلٌ وفى عيونى نبال
فى ذلك الروضُ زهرٌ لولا الحياء قطفتُه ... ونظرةُ الليث قيدٌ لألفِ ألفِ غزال

أباحنى فى التدانى والبعد عزّ الفضيحه ... حاول خلاصك واسلُكْ إلى النجاة الذاهب
وذاك لو يرتضيه فى الحبِّ خيرُ نصيحه ... فلن يفوتك سهمى ولو علوتَ الكواكب

لقيتُه ذات يومٍ فى العصر عند الجزيرة ... الرأىُ ، الرأىُ عندى إذا نشدتَ الأمان
والنيل سكرانُ صاحٍ مثل العيون الكسيرة ... أن تستحيل نسيماً ونفحةً من حنان

لقيتُ من لو دعانى إلى الفداء فديتُه ... عندى وفى ظل حبى تحسُّ روح الوجود
لقيتُ من لو دعانى بعد المات أجبتُه ... وفى ضريم غرامى ترى شعاع الخلود

لقيتُ فيه وجودى وكان بالصحو زالْ ... أنا النجىُّ القريب من القلوب الشوارد
فعدتُ نشوانَ حيًّا أعيش عيش الضلال ... أنا الظلوم الحبيب إلى الصدور النواهد

رأيتُ حين رأيتُه ما سوف يجنى الصفاء ... رباهُ ما الصادحات من ضاحكات الأمانى
فصاح روحىَ يهذى ما الحبُّ إلاَّ بلاء ... رباهُ ما النائحات من شاديات المثانى

أذاك نورٌ جديد يلوح فى قلب شاعر ... رباه ما الشارقات من النجوم الثواقب
أم ذاكَ روحٌ مَريد يصول فى قلب ساحر ... رباه ما الغاربات من الظنون الكواذب

كان الفؤاد استراح من فاتكات الشجون ... رباه كيف ترانى وكيف حالىَ عندك ؟
فمن إليه أتاح كيدَ الهوى والفتون ... هل كنت فى كل حالٍ إلاَّ فتاك وعبدك ؟